الأخبار والشعر: إشكالية التأثر والتأثير

أم كلثوم بنت المعلى
مدرسة الدكتوراه: النص والمناهج
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط العصرية

ملخص

تطرح هذه المعالجة إشكالية التأثير والتأثير بين الشعر والأخبار، حيث يراد تناولها من زوايا اتصال تم حصرها في كل من مستويات التداخل والتفاعل الحاصل على مستوى بنية كل من الشعر والخبر، وذلك من منطلق أن هذا الموضوع لم يحظ من الاهتمام بما يتناسب مع حضوره المحوري في المجال النقدي، لاسيما إذا ما قورن ذلك بمدى تعالق كل من الشعر والخبر وامتزاجها في التراث العربي، مما يثير الكثير من علامات الاستفهام حول هذه الظاهرة المضطردة في الأدب العربي القديم.

تقديم

يدخل طرحنا لهذا الموضوع، في سياق تناول بعض الظواهر الأدبية الملفتة في التراث الأدبي العربي، لاسيما حين تحوي تلك الظواهر من الطرافة والأهمية ما يجعلها جديرة بالتناول والتحليل.

وقد اخترنا أن يكون متعلقا بزاويتي التأثر والتأثير في الصلة بين الشعر والخبر، تلك الصلة التي يمكن القول إنها بقيت في الظل عهودا كثيرة، بالرغم من تعدد السياقات المتبادلة بين الشعر والخبر، وتعدد أوجه العلاقة بينها، ولعل من آكد مظاهر اتصال الشعر بالأخبار، التداخل المتمثل في اشتراكهما بنية نصية واحدة، إضافة إلى ما يؤدي إليه التداخل عادة عن مظاهر التفاعل بين الشعر والخبر.

ولئن كان كل من الشعر والخبر جنسا أدبيا مستقلا من حيث خصائص البناء وأنماط التلقي، إلا أن هذه المعالجة لا تنظر إلى أي منهما منفردا، وإنما تطرح العلاقة بينهما وهما في وضعية تجاور وحال تحاور، داخل قالب نصي واحد غلبت عليه تسمية أحدهما، وقد كان من مسوغات هذا الاختيار أن ذلك التجاور هو الصيغة المضطردة، إلى حد غدت معه النمط المهيمن في الأدب العربي القديم، حيث تحلى الأخبار والخطب بالشعر، إلى جانب النصوص الخبرية المتنوعة التي تتخللها الأشعار، كما نجد النصوص الشعرية الممتزجة بالأخبار ذات المنحى العجائبي طورا، وأخبار ترفيهية طورا آخر، كما تلفي القصص في قالب شعري، يجمع بين

الخصائص الشعرية و السردية، ومن هذا المنطلق لا يكون من المبالغة القول إن التداخل بين الشعر والأخبار، ظل الصورة الأدبية السائدة في الثقافة العربية قديما.

ونظرا لتعدد الإشكالات التي تطرحها – في نظرنا– علاقة الشعر بالخبر، فسنأخذ منها على سبيل التمثيل، إشكاليات تتعلق بأثر الأخبار في إنتاج النوع الشعري كمستوى أول، ثم التنظير له باعتبار ذلك ثاني مستويات تشكل الوعي النقدي، وأخيرا أثر الأخبار في تكوين أفق الانتظار، وصياغة سياق التلقي المتعدد الخلفيات والروافد.

ولعل أهمية هذا الموضوع تكمن في مستويين: أولهما يتعلق بجانب الجدة فيه، حيث يمكن القول إنه موضوع لم يتطرق إليه الدرس النقدي بالصيغة والنهج اللذين ارتضيناهما لمقاربته – هذا على الأقل في حدود ما أتيح لنا الاطلاع عليه–، أما المستوى الثاني: فيتعلق بمكانة كل من الشعر والخبر في التراث العربي، بوصفها ركيزتين استقرت عليهما الثقافة العربية بمختلف مظاهرها وتجلياتها، ومن ثم فإن تناول العلاقة بين هذين المكونين – بل المصدرين – من مصادر التراث العربي، ومحاولة استجلاء أنماط الصلة بينهما وهما في حال تداخل بنائي وسياقي، ووضع تفاعل، مبحث جدير بأن يطرح على محك التحليل والنقاش، سعيا إلى الوقوف على ما أمكن من حقيقة هذه العلاقة المعقدة، التي بقيت في دروب النسيان زمنا طويلا، ولم يكتب لها أن تكون محط نظر البحث إلا في فترات متأخرة.

ويمكن القول إن تلازم الشعر والخبر وتداخلها في الأدب القديم، أمر يشي بوجود مسوغات خفية ونتائج حتمية، ومن ثم يحفز بل يشجع على تتبع سياقاتهما الممتعة بدرجة أولى، والمفيدة بلا شك في كشف بعض الحقائق النقدية القديمة، ورفع اللبس عن جزء آخر من المسائل التي ظلت عالقة في مسالك الاختلاف، ولم يكن من مظنة للحسم فيها إلا ما كانت الأخبار تجود به على القارئ من نقد وتنظير وترسيخ للوعي الأجناسي الجمعي، فيسعفه في فهم النصوص وتنزيلها في السياق الذي ترتضيه أعراف التلقي المهيمنة حينها.

وسنحاول من خلال الخطوة الأولى في معالجتنا لهذا الموضوع، التعرف على منزلة كل من الشعر والأخبار في الأدب العربي القديم، كما سنحاول تتبع الصلات والعلاقات التي كانت قائمة بين هذين الجنسين من أجناس الأدب العربي.

1- الأخبار والشعر في التراث العربي:

لم يزل الشعر والأخبار صنوين قلما افترقا، فكل منهما يستدعي الآخر، سواء في المرويات الحكائية التي كانت مادة المجالس والأسمار واللقاءات الأدبية، أو كان ذلك ضمن أسفار اللغة

والأدب، فيأتي الخبر في الغالب ليعلل ويؤصل ويفسر النصوص الشعرية، بينما تأتي هذه الأخيرة لتعضد جانب الصحة في هذه الأخبار.

إن الحضور اللافت للشعر في المصنفات إلى جانب الأخبار وغيرها من الأنماط النثرية، مع افتراض وعي المؤلفين به- في اعتقادنا-، ظاهرة حَرِية بالدراسة والبحث عن جذورها ومسوغاتها، وأبعادها اللاحقة بالنسبة لكلا الجنسين الأدبيين، إبداعا ووعيا أجناسيا وتقبلا، عن طريق إعادة قراءة المفاهيم على ضوء المصنفات الأدبية القديمة، وتحديدا تلك التي تعكس مستوى معينا من النضج الأجناسي، من خلال تجاور الأجناس النثرية وتحاورها، وإن جاء ذاك التحاور خافتا أحيانا، هذا إلى جانب الشعر حيث نشأت" بين الشعر والأخبار علاقة مخصوصة فيها شيء من التواطؤ والصراع"[1]، مع أنه يمكن القول بشيء من الاطمئنان إن هذا النضج الأجناسي[2] لم يبلغ مداه، نتيجة غياب وعي أجناسي متبلور يعترف بخصوصية كل جنس أدبي، وهو ما يمكن أن يكون مسوغا طبيعيا لما تفطن إليه الباحثون، وشكوه في دراساتهم من غياب تحديد دقيق للخبر كجنس أدبي ذي بنية قارة، وسياقات تتحكم في إنتاجه في التراث الأدبي العربي.

1.1... الشعر في التراث العربي

لقد ساد شبه إجماع على ما يتميز به الشعر من خصائص فنية، جعلته أشرف مراتب القول عند العرب، فهو عندهم سجل المآثر والداعي إلى المكارم، المؤثر في الأنساق الثقافية، وهو أساس التفكير النقدي والبلاغي القديم، وهذا ما عبر عنه الجرجاني وهو يعرض رأي الناقد البصير بالشعر، حيث يعتبره " مجنى ثمر العقول والألباب، ومجتمع فرق الآداب، والذي قيّد على الناس المعاني الشريفة، وأفادهم الفوائد الجليلة، وترسّل بين الماضي والغابر، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد، ويؤدي ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد، حتى ترى به آثار الماضين مخلّدة في الباقين، وعقول الأولين مردودة في الآخرين"[3].

وليس هذا الرأي مقتصرا على ناقد بعينه، وإنما هو مظهر من مظاهر تغلغل الشعر في البيئة الثقافية القديمة، كرسته شروط التلقي التي كانت مهيمنة.

---

[1] . محمد القاضي ،1998 م، ص :541

[2] . نعني بالنضج الأجناسي وجود أجناس أدبية متعددة ومتمايزة، مما يولد لدى المتلقي وعيا بماهية ومقومات وملامح كل منها مما يجعله قادرا على التفريق بينها، سواء المتلقي العادي، أو المتلقي الخبير (الناقد).

[3] – الإمام أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، 1989م، ص15

لقد" انحدر الشعر العربي من عصور موغلة في التاريخ حتى وصل إلى عرب الجاهلية قبل الإسلام بقرون معدودات وهو نسج فني في غاية الجودة. ثم كان الإسلام بكتابه المعجز، فتغيرت أساليب الشعر نوع تغير لم يظهر بَدِيّاً إلا في العصر الأموي. ثم جاء العصر العباسي فلانت قناة الفصحى في نفوس العرب باختلاط الشعوب المسلمة اختلاطا شديدا، فتغيرت مرة أخرى أساليب الشعر نوع تغير حتى ظهر جليا في النزعة البديعية عند أبي تمام. فأذكى شعره ومعارضه في الطريقة شعر البحتري حركة نقدية أثمرت كتاب الموازنة للآمدي، ونظرية عمود الشعر للمرزوقي"[1].

بيد أن الإنصاف يستلزم منا التنبيه إلى أن الشعر بوصفه جنسا أدبيا، قد حظي بالعناية والاهتمام في كل الثقافات والحضارات التي عرفتها البشرية، حيث "تشترك الإنسانية كلها في الاعتراف بقيمة الشعر وعظم تأثيره ولكن الكثيرين يختلفون في رؤية السر الذي تكمن فيه روح هذه القوة {...} ولعل هذه الصعوبة هي السر فيما ذهب إليه بعض المفكرين، من أن الشعر ضرب من النبوغ أو الإلهام لا يصدر فيه الشعراء عن حكمة، ولكنهم يرددون كلاما حسنا كالكهنة لا يفهمون معناه"[2]، فالشعر ذلك القبس المجرد واللغز المحير، الذي يتفق الذوق البشري على استحسانه، ويختلف في تعليل سبب ذلك الاستحسان، فمع وفرة تعاريفه وثبات مقوماته الأساسية، لا تكاد تجد اتفاقا على ماهيته.

وعندما كان قانون التنوع يقتضي حتمية وجود أجناس أدبية متعددة، فقد وجد إلى جانب الشعر العربي أنواع نثرية عديدة منها القصص والنوادر والأخبار والسير والمقامات ...

فهناك من يعتبر أن "السرد موجود في تراثنا العربي القديم، مثله مثل الشعر على الرغم من أنّ السيادة كانت آنذاك للشعر، إلا أنّ السرد كان له حضوره في المقامات والسير الشعبية والرسائل الأدبية، وغير ذلك من فنون النثر الأخرى، وهذه الأنواع النثرية المتعددة ما هي في الحقيقة إلا خبرٌ تم تطويره، لاسيّما أنّه مصاغٌ بالشكل الذي اقترحته الثقافة العربية آنذاك، من حيث اعتماد النظام الإسنادي والتلويح بما هو تاريخي وواقعي"[3]. أي أنه يرى الخبر بمثابة نواة لتلك الأنواع السردية.

---

[1] . رحمة بنت أحمد الحاج عثمان، 2010، ص38

[2] . بدوي طبانه، 1979، ص: 245 - 246.

[3] . ميادة عبد الأمير العامري، 2011م، ص:21

2.1... الخبر الأدبي

وقد وقع اختيارنا على الخبر قسيما للشعر في هذه المعالجة، انطلاقا من حضوره البارز في التراث العربي بشكل عام، وارتباطه بالشعر على نحو أخص سواء إبان سيطرة النظام الشفاهي، أو في المصنفات الأدبية.

ونحن هنا نتناول" الخبر الأدبي، والمقصود منه هاهنا بصورة خاصة، الخبر في شكله المكتمل على يدي الأصفهاني في الأغاني، وهو أكبر مدونة للأخبار في الأدب العربي، ويمكن اعتبار{ تاريخ تأليفه الربع الثاني من القرن الرابع الهجري }، الغاية القصوى التي بلغها الخبر في الازدهار ووضوح الخصائص الجمالية"[1].

قد لا نمانع من حيث المبدأ في تقبل الطرح القائل:" إن القدماء في سائر الأمم كانوا يقسمون التعبير الأدبي إلى قسمين: نثر وهو هذا الكلام المطلق الذي لا يمسك انسيابه وزن ولا تحده قافية، وشعر وهو هذا الكلام الذي التزم فيه قائله تلك الحدود، (...) بغض النظر عن إشارات ذكية تتحدث عن الشعور والوجدان ... في التراث النقدي العالمي ... هو المقياس المعتمد"[2]، كما لا يمكننا أيضا أن نتجاهل، أن من بين تلك الإشارات الذكية، إشارات إلى تقسيم الشعر إلى أغراض، وتقسيم النثر إلى أشكال أو أنماط، بل إلى أغراض أحيانا[3]، وما كان التراث العربي بدعا من أمره في هذا الشأن، فقد عني النقاد قديما بذكر الأنواع النثرية الرئيسة، كالخطب والنوادر والأخبار ثم المقامات والحكايات والأسمار...

والخبر يعبر به "في اللسان العربي عن تتبع الأحداث بواسطة الكلام بألفاظ مختلفة: كالقصص والحكاية والحديث والخبر. وكلها ألفاظ تفيد بدرجات مختلفة معنى التتبع (تتبع الأثر بواسطة الكلام، المحاكاة بواسطة الكلام، وهما في النهاية حديث أو إخبار عن الحدث) غير أن كل لفظ من هذه الألفاظ قد تمحض داخل الثقافة العربية أو كاد يتمحض لدلالة أخرى"[4].

فالخبر في مجال الأدب، يأتي للدلالة على بنية سردية مكتنزة ذات سند ومتن، تتعلق بحادثة أو حوادث، وتحمل رسالة ذات بعد توجيهي، أو ترفيهي أو إبداعي، وهنا نعود لنجدد القول إن من أهم مسوغات طرقنا لهذا الموضوع، كونه لم يلق من الاهتمام والطرح بما يتناسب مع

---

[1] . محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سبق ذكره، ص: 8

[2] . عبد الرحمن إبراهيم محمد، 1981م، ص:171-172

[3] . نعني بالأغراض في النثر ما وجد منذ العهد العباسي من مضامين يمكن أن توصف تجوزا بالأغراض منها على سبيل التمثيل الغزل النثري، والذي كان الترسل قالبه الأساس.

[4] . محمد بن أحمد تتا، 1997م، ص:22

محوريته في الدراسات النقدية الحديثة، بل إنه يجوز القول إن التقصير في دراسة الخبر ظل السمة الأبرز في جل الأعمال النقدية التي تناولت التراث الأدبي، ونحن في هذا الحكم نستند إلى مجموعة قرائن، منها ندرة الدراسات المتعلقة بالخبر بوجه عام، فإذا استثنينا عمل محمد القاضي "الخبر في الأدب العربي"، وعمل بشرى قانت "الخبر والحكاية"، لا نكاد نظفر بدراسة تتناول الخبر بالدراسة، وتتمحض لهذا الغرض فتشبعه تحليلا وتفسيرا، كما أن من القرائن كذلك غياب الخبر أو تغييبه على الأصح، في أعمال لا يسوغ بحال من الأحوال غيابه عنها، ومن ذلك على سبيل المثال أن كتابا بعنوان:" النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية فنونه مدارسه وأعلامه"، لم يتطرق البتة إلى الخبر، ولم يذكره ولو بشكل عرضي حتى وهو يعدد أنواع النثر السردي الشفاهية والكتابية، حيث قسم الباحث السرديات الشفاهية إلى قصيرة وطويلة، لكنه لم يذكر الخبر ضمن أي منها، وإنما اكتفى بالسير والملاحم، ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا التصنيف من النقص، إذ كيف يسوغ أن يغيب الخبر وهو أحد أبرز أصناف السرد الشفاهية في الأدب القديم، وهو قابل لأن يدرج ضمن كل من السرود القصيرة والطويلة، وكانت المفاجأة غير المتوقعة أن القسم الثاني من هذا التصنيف أيضا، جاء خاليا من أي ذكر للخبر، أو حتى من مجرد الإشارة إلى وجوده ضمن السرود الكتابية قديما.

3.1... تركيب

لقد كان للتلازم الذي أشرنا إليه آنفا بين الشعر والخبر، مظاهر وتجليات، جسدت مجتمعة العلاقة التداخلية والتفاعلية بينهما، وكانت حافزا لنطرح العديد من التساؤلات والإثارات، ومن تلك المظاهر تأثير الأخبار في الوعي بالنوع الشعري، من خلال وجود الديباجة الخبرية للنص الشعري، التي كانت تسهم من خلال الوصف الدقيق والتعليل الموجه في توثيق الأحداث، فالسند وسيلة الأخباري في تهيئة المتلقي ذهنيا، وحمله على الاقتناع ولو جزئيا بمصداقية المتن الخبري، من هنا كان دور الأخباري ومن خلاله الأخبار، كبيرا في تبلور الوعي بالشعر بوصفه الجنس الأدبي المركزي، فقد وشى بأن ثمة مستوى من الإدراك الأجناسي لدى واضعي هذه الأخبار وما ينبثق عنها من الشعر، وجه عنايتهم وكان الحافز على المضي في مسارهم السردي، وإلا فما الداعي لأن يجهد الراوي ذهنه وينحل أحد شخوصه نصا شعريا؟ قد يتضمن من المقومات الإبداعية أضعاف ما تملكه نصوص أخرى، تبوأت مكانتها في المخيال الجمعي بمجرد نسبتها إلى اسم مشهور، مما يعني أن ثمة حضور قويا للخبر في تكوين الوعي بالشعر كنوع أو جنس أدبي، ولعل تاريخ الأدب هو المجال الأنسب لإبراز ذلك الحضور، أو على الأصح للاطلاع على طبيعته ومكانته، لاسيما

إذا استحضرنا القيمة القرائية إذا جاز هذا التعبير، لما يرد من الأخبار في سياقات القصائد، ودوره بالغ الأهمية في إطلاع المتلقي على ما وراء النص، أو لنقل إنه يتيح له الاطلاع على جزء من السياق الذي أنتج النص الشعري، فقد كانت وقائع تلك السياقات، وما يربط بينها من أخبار ـ أو ما يفترض أنه كذلك ـ، عنصرا مسئولا عن تبيئة الحاضنة الأدبية للمجتمع، وقد جاء ذلك على نحو أسهم في إكساب المتلقي وعيا أجناسيا بالشعر من ناحية، ثم بالنظرية الشعرية من خلال ما تكرسه أخبار الشعر، من حيث تبيان مناسبة قوله، وإيضاح ما يحيل إليه من وقائع وما يوثق من أحداث، وما يحاك حول موهبة قرض الشعر وماهيته، وما يحمله تاريخ الأدب من إيحاءات ودلائل تجعل الوعي يتولد بشكل تلقائي، ثم الوعي بسياقات التلقي، لاسيما بعد أن تطور دور الخبر إلى بلورة هذا الوعي، على نحو يجعل المتلقي يستثمر الخبر للتعرف على حيثيات القصيدة وما تحيل إليه الجمل والوقائع الشعرية، وهو ما تمثله في مرحلة التدوين أخبار الشعراء والتعليق على الأشعار بالتفسير والتعليل، وإيراد الأخبار على هوامش النصوص، ثم وجود بعض الشعر في ثنايا تلك الأخبار وهلم جرا، أي أن للشعر والخبر دورة تعاقبية، مما يعكس مدى عمق وتعدد أوجه التداخل والتفاعل في العلاقة بين الشعر والخبر.

وأكثر من ذلك نجد شروط التلقي في التراث العربية، تعول على الأخبار في إنزال النصوص الشعرية في سياقاتها المختلفة، إلى حد يجعل القارئ أو المتلقي أحيانا، يتوقف عن ممارسة دوره في فهم النص، حتى تقوم الأخبار بدورها في إرساء محددات توجه فهمه، بشكل غير مباشر تارة، وبشكل صارخ تارات أخرى، والمفارقة تكمن في رضا المتلقي على اختلاف أنواعه، وعدم اعتراضه على هذا النمط من التدخل من حيث المبدأ.

2- سياقات التداخل والتفاعل بين الشعر والأخبار

يبدو التداخل بين الشعر والخبر سمة غالبة في التراث العربي، كما أشرنا في موضع سابق، بيد أن استقراء النصوص التي يمتزج فيها الشعر بالخبر، يسلمنا إلى وجود مظهر آخر من مظاهر الاتصال بين التفاعل بين النص الشعري والمتن الخبري هو التفاعل، كما نجد لهذا التفاعل أنماطا عدة ناتجة عن انصهار الأخبار والشعر معا في قالب واحد قد يكون قصيدة، وقد يأتي في صيغة خبر، إن ميلاد كائن أجناسي مركب من جنسين أدبيين، هو مظنة لبروز خصائص جديدة تحتفظ بمقومات كل جنس وقد تضيف إليها بعض مظاهر التفاعل النصي في صور وتجليات

عديدة،" فالتفاعل هو نوع من أنواع التداخل ولكن في أقصى صوره بحيث تندمج مع النصوص وتتماهى لتشكل نصا واحدا، وقد يكون التفاعل بين نصين أو متعددا أي بين عدة نصوص."[1]

فالتفاعل وإن كان في ظاهره موحدا، من حيث هو اندماج لعناصر تداخلت بحيث تظهر في كل منها سمات الآخر إن هي افترقت، إلا أن ثمة نسقا آخر من التفاعل، يوازي أو على الأصح يكمل ما بين الأنواع الأدبية من أنماط تفاعل، وهو ما ينشأ من علائق وما يتم بناءه من جسور تواصلية بين المتلقي والأنواع الأدبية وهي في صيغة تداخل وحالة تفاعل، وقد قادنا تتبع المستوى التفاعلي بين الشعر والخبر إلى التفريق في تناولنا لمستويات التفاعل بين نوعين أساسيين منه أولهما:

1.2... التفاعل الخارجي:

ونعني به ذلك النشاط المترتب على تجاور نوعين أدبيين كالشعر والخبر على سبيل المثال في النموذج الذي يراد من خلال هذا العمل الوقوف على حقيقته واستجلاء ما يربطه من وشائج ما يتسم به من خصائص، ولنا أن نستحضر أن لهذا التجاور سقفا أعلى يمثله تعايش الأنواع الأدبية داخل الثقافة الواحدة، وهو تعايش يحكمه بطبيعة الحال قانون المرجعية فيه هي سلطة التلقي التي تقضي بهيمنة نوع أدبي بوصفه مركز اهتمام الذائقة، وتراجع أنواع أخرى تظل على الهامش، وهو قانون قابل للتحيين بمعنى أن العامل الزمني لا يفتأ يفعل فيه فعله، وهو ما تنتج عنه ديناميكية النظام الأجناسي العام،" ويجعل منه بنية غير قارة بالمفهوم المطلق لكنها محددة المعالم في بناءها العام، كما أن من تجليات التفاعل الخارجي أو غير المباشر كذلك تجاور نوعين أدبيين أو أكثر في مصنف بعينه وهو ما يمثله انطلاقنا في مقاربتنا للعلاقة بين الشعر والخبر من خلال أي من نماذج المدونة التي أشرنا إلها في مفتتح حديثنا، كما أنه له تجليا آخر أكثر خصوصية، وهو ما يمكن ملاحظته حين تحتوي بنية الخبر على نص شعري، أو يستدعى البحث في المعاني الشعرية الاستعانة ببعض الأخبار سعيا إلى جعل المتلقي على بينة مما حصل أو يتخيل أنه كذلك، في سياق أدبي أو ثقافي معين، أو يكون النص الشعري بمعنى أن هذا النوع المركب من نوعين أدبيين ربما تجوز مقاربته باعتباره كائنا أدبيا جديدا من منظور الأجناسية، وذلك من منطلق أن أي خلط أو مزج بين نمطين، يؤدي إلى تشكل نمط مركب، قد يحمل بعضا من خصائص كلا النمطين، أو يحتفظ بها كلها، ولكنه يضيف إليها في الآن ذاته خصائص جديدة.

لقد ساهمت التقاليد الخبرية، في جعل الشعر ينصاع في لحظة من اللحظات لمقتضيات تلك التقاليد، القائمة في الأساس على ربط القصيدة أو المقطوعة، بل وربما البيت الواحد، بالسياق

---

[1] – ديول طاهر، 2011، ص34

السوسيوثقافي الذي أنتج فيه، والظروف التي اكتنفت تشكل هذا النمط من التعبير الأدبي، قبل أن يغدو تمظهرا لبحث الذائقة عن البعد الجمالي في النصوص.

إن مما يمكن أن يعد من الصيغ الخارجية للتفاعل الحاصل بين الشعر والسرد بشكل عام، بناء نمط من الألفة لدى الذائقة العربية بين الشعر وغيره من فنون الأدب النثرية، فقد كانت الخطب والقصص والأخبار تحلى بالشعر مشافهة وتدوينا، ويسوغ المزج بينها عادة باعتباره جزءا من تقنيات يجأ إليها الراوي أو المؤلف طلبا للتشويق ودفع الملل، وهو ما جعل من هذا السلوك مطلبا أدبيا يلبى حاجة المتقبلين،" فالأخبار عادة تنزع إلى" ابتلاع "ما يحوم حولها من شعر وأمثال ونقد، ومناقرات وصور بلاغية وغيرها، وتمثلها بإكسابها الخصيصة السردية التي تتدرج بواسطتها في مجال الأخبار"[1].

ومن هذه الزاوية تتجلى مظاهر التفاعل بين الأجناس والأنواع الأدبية على مستويين، أحدهما أفقي، ويمثله ما أشرنا إليه من تجاور بين هذه الأنواع داخل الكتاب، أو في المرويات الشفهية، أما المستوى الآخر فهو عمودي، ويجسده التمازج بين الشعر والخبر على مستوى البنية والمضمون.

2.2... التفاعل النصي:

قد يكون من المفيد التمهيد بلمحة تعرف بمفهوم التفاعل النصي، ومستوياته ومنزلته في المقاربات النقدية المعاصرة.

ربما من شبه المسلم به القول "إن التفاعل النصي مفهوم ما بعد بنيوي، ظهر على يدي جوليا كريستيفا من خلال اشتغالها على أبحاث ميخائيل باختين وفي حقل السيميائة بالذات، لكن ولادته هذه ولادة المصطلح Intertextualité، فقط أما ولادته الحقيقية فقد كانت على يد ميخائيل باختين، و إن اشتغل بمصطلح آخر هو التفاعل الذي أطره في نظرية الحوار والتعدد الصوتي 1921م"[2]، كما أنه لا يمكن تجاهل ما يمكن أن يكون بواكيرا لظهور المفهوم، بدأت مع العالم اللغوي فرناند سوسير، حيث رأى أن "سطح النص مكوكب تبنيه وتحركه نصوص أخرى حتى لو كانت مجرد كلمة مفردة"[3]، مما يدل على أن سوسير فطن إلى أنه يشترك في بناء النص عناصر متعددة، حيث تمده نصوص سيارة، تجعل منه مركبا يحيل إلى العديد من المراجع، وينفتح على خلفيات تتعدد بتعدد ما امتاح منه المبدع لحظة إبداعه، من نصوص وتجارب إبداعية، صهرتها مخيلته، لتعيد استخدامها بشكل قد لا يكون المبدع واعيا به بشكل كاف.

---

[1] – الخبر في الأدب العربي، ص 406

[2] – التفاعل النصي، مرجع سابق، ص 86

[3] – المرجع السابق، الصفحة نفسها

ولعل من الصيغ المحققة للتفاعل النصي، وجود الشعر السردي، الذي يمكن أن تصنف ضمنه، القصص والمغامرات الشعرية، والسرد الشعري، بما يحيل إليه من تضمن الأنواع السردية سواء كانت أخبارا أو حكايات، لبعض الشعر، أو تضمنها بعض خصائص الشعر، من موسيقى أو تقفية أو غير ذلك، حيث تمتزج في كل منهما الخصائص الأجناسية، وتتداخل الصيغ القولية المميزة لكل جنس أدبي، مما يجيز القول، إن التناص ليس المظهر الوحيد للتفاعل بين نصوص أدبية رحالة أو سيارة بتعبير كريستيفا، تشكل أطلالها المنطمسة، نصوصا جديدة عن وعي أو دون وعي، بل إن تداخل الشعر والخبر هو الآخر، وبروزه في قالب نصي ثابت، تتم فيه المراوحة بين الشعر والخبر على نحو يفترض التعالق بين الإثنين معنى ومبنى، بحيث لا يحتفظ أي منهما ببنية متماسكة، إذا ما تم الفصل بينهما، لهو أحد مظاهر التفاعل النصي، التي تولى الراوي أو لنقل الأخباري –في فترة معينة– تنسيق معمارها، المكون من الشعر والخبر كل بخصائصه ومقوماته الأجناسية، كما كان للتلقي دوره في ترسيخ هذا النمط من التفاعل، من خلال إقراره للمزج بين الأجناس، وتسويغ التلازم بينهم بكونه مظنة لدرء الملل ودفع السأم، والترويح عن المتلقي، مما ساعد على تجذره واستحالته سلوكا تصنيفيا.

3– استخلاصات

نصل إلى آخر محاور هذه المعالجة، التي تسعى– رغم تواضع العدة المنهجية والمعرفية– إلى تبين بعض أوجه العلاقة بين الشعر والخبر، كما تحاول الوقوف على ما أمكن من نقاط التأثر والتأثير الذي كان التداخل محركها، والتفاعل المحفز على نشوئها.

لعل من أهم ما خرجنا به من خلال تناول هذا الموضوع الطريف والمحوري، ما يلي:

1.3...: في إطار تأثير الأخبار في الشعر: يوجد ما يمكن أن يسمى المنظور الإبداعي، وهو في نظرنا المسئول عن إنتاج كل من الشعر الخبر، ولا يمكن تجاهل أثره في اختصاص كل منهما بملامح وجماليات تحفظ له تميزه الأجناسي، وقد أخرج لنا هذا المنظور صورة أخرى يمتزج فيها الشعر بالخبر، في قالب نصي مركب، ممتع وجدير بالبحث في اعتقادنا، لتوفره على عديد صيغ لاشك أن لكل منها دلالتها في السياق الأدبي العام، ومن تلك الصيغ على سبيل المثال أن يطغى حضور الشعر في الخبر، فيكون محور الصراع، وبؤرة التوتر، والمسيطر على مجمل الأفعال السردية المكونة للخبر، وقد تهيمن سردية الخبر وشخوصه، وحينها يكون الشعر مجرد عنصر من العناصر المكونة له، والأمر ذاته جائز حين يكون النص شعريا، ويكون حضور الأخبار فيه قويا، كما يمكن أن يكون حضور كل من الشعر والخبر متوازيا، ويمكن أن يمثل لهذا النمط بالأخبار

المؤطرة للشواهد الشعرية، فغالبا ما يكون ثمة مستوى من التكافؤ الكمي والكيفي، بين النص الخبري والشاهد الشعري.

2.3... دور مرحلة التنظير للشعر: حيث يمكن القول إنه كان من أهم أسباب ظهور متلازمتي الشعر والخبر في الثقافة العربية القديمة، ويمكن تعليل هذا الحكم بما يلاحظ من ارتباط بين الممارسة التنظيرية للشعر، بوصفه جنسا أدبيا، وبين الطبيعة المرنة للخبر، ومحوريته وحضوره المرتبط بدوره في فضاءات المجالس وكيفية إدارتها، وتعامل شخوصها مع المواضيع التي تكون مادة للنقاش، ومن بينها النظرية الشعرية، لذلك وجدنا أن العلاقة بين الأخبار والتنظير للشعر جد وثيقة من هذه الزاوية، والنماذج التنظيرية للشعر لا تكاد توجد منبتة عن الأخبار الواصفة والمفسرة والمؤصلة أو الموجهة.

ففي كل عنصر من عناصر النظرية الشعرية، لابد من وجود أخبار تتولى عرض مسوغات هذا العنصر، وتبسط اختلاف الآراء حوله، وهنا لن تكون الأخبار بطبيعة الحال ناقلا بريئا لتلك المحتويات، المنفتحة على عدة مجالات منها الايديولوجيا، ومن هذه الزاوية تحديدا ينبع ما نجده من تخوين للرواة، واتهامهم بالنحل والوضع والتدليس، وهو اتهام لا يمكن تقييمه في مثل هذه العجالة، وإنما الوكد من الإشارة إليه تبيان علاقة الأخبار بالشعر في مراحله التنظيرية، وتلك العلاقة حمالة أوجه نظرا لتعدد زوايا النظر الممكنة إليها.

وخلاصة القول إنه يندر أن تجد جزءا من أجزاء النظرية الشعرية العربية القديمة بمعزل عن الأخبار، وعلى هذا الأساس يجوز تصنيف الأخبار تبعا لمضامينها، وهو ما يمكن أن يكون مفيدا في التعرف على جوانب من تأثيرها في التنظير للشعر والعكس ممكن.

3.3... في مسار تتبع أثر الخبر في الشعر: كان عنصر التلقي يحضر بوصفه طرفا مؤثرا في الأدب بوجه عام، ومتصلا بالأخبار من ناحية انفعال المتلقي وتفاعله بمحمولات الأخبار من شعر ونقد، وقد قادنا استقراء هذا الجانب، إلى أن نعتبر عامل التوجيه في الأخبار مكمن ذلك التفاعل وأحد أسبابه المباشرة، لاسيما إذا استحضرنا أن المتلقي قد خامره بعض الوعي، بدور الرواة في التحكم بمحددات فهم النصوص الشعرية في سياقات مختلفة، وقد كان للأخبار دور فعال في تشكل ذلك الوعي.

ولعل كون الرواية كانت قناة لنقل مختلف العلوم الشرعية واللغوية والأدبية، قد عزز منزلة الخبر وصلته بمختلف مجالات المعرفة، ليكون له حضور مزدوج، تبعا لوجود بوصفه ناقلا لمحتوى معين، ووجوده كجنس أو نوع أدبي له مقوماته وجمهوره وأنماط تلقيه، كما له عديد نوافذ يفتحها على باقي الأجناس والأنواع الأدبية.

رابعا: وجود مظهرين من التفاعل بين الأخبار والشعر، أحدهما خارجي عام، له وجود أفقي مرده التجاور بينهما، الآخر وداخلي أخص من الأول، لكونه يعكس الصيغ الداخلية لتجاور الشعر والخبر في قالب نصي واحد، مع إمكانية النظر إلى التداخل بين الشعر والخبر، من زاوية كونه مظهرا من مظاهر التفاعل النصي، لاسيما بعد تجذره في المجال لأدبي التراثي، بعد احتفاء التلقي بهذه الصيغة التي أصبحت مضطردة، تحت تعليلات معروفة.

أخيرا ..

نأمل أن نكون هذه المعالجة المتواضعة، قد وفقت في إثارة أهم إشكالات هذا الموضوع، الذي لم يحظ بعد بما يكفي من طرح وتحليل، كما نرجو أن تكون باعثا لفتح آفاق بحث جادة، ودافعا لتطوير زوايا النظر إلى هذا الموضوع، وأدوات مقاربته منهجيا ومعرفيا.

المراجع:

- الأحمد (نهله فيصل)، 2010م، التفاعل النصي التناصية: النظرية والمنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة
- الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن)، دلائل الإعجاز تحقيق محمود محمد شاكر، 1989م، مطبعة المدني، القاهرة
- القاضي (محمد) 1998م، الخبر في الأدب العربي دراسة في السردية العربية، منشورات كلية اللغة العربية، بيروت
- تتا (محمد بن أحمد)، 1997م، المتكلم في الرواية، مجلة الموكب الثقافي
- رحمة بنت أحمد الحاج عثمان، 2010م، التطرق على قضية الحداثة في الشعر العربي المعاصر، مجلة علوم إنسانية
- طبانه (بدوي ـــ) 1979م، فن الشعر بين الغاية والمفهوم، مجلة اللغة العربية
- طاهر (ديول)، 2011، السرقة الشعرية في التراث النقدي العربي، المصطلح والمفهوم، المصنف ابن وكيع نموذجا، ورقلة
- عبد الرحمن إبراهيم محمد، 1981م، نظرية الشعر في كتابات صلاح عبد الصبور، القاهرة
- ميادة عبد الأمير العامري، 2011م، البنية السردية في كتاب الأغاني، البصرة